29 إيزابيل الليندي

«هناك شيء سحري في سرد الحكايات .. تصبح القصة كاملة حين تتواصل مع الحكاية الجمعية، حيث تصبح قصص الآخرين جزءاً من الكتابة، وحين تعلم أنها ليست قصتك وحدك .. الكتابة تُريحني من الغم، بالرغم من أنها تُكلفني الكثير؛ لأنَّ كل كلمة هي أشبه بجمرةٍ حارقةٍ» .

الروائية التشيلية .. التي تُعتبر من أكثر روَّاد تيار الواقعية السحرية في أمريكا اللاتينية عُمقاً وشهرة .

وهي الكاتبة المرشحة دائماً للحصول علي جائزة نوبل في الأدب .

والتي توجه مُعظم إبداعها إلي : ابنتها «باولا» التي رحلت في ريعان الشباب، وإلي عائلتها، والمنفيين، والفقراء والجوعي، والقتلي، والمهاجرين، والنساء المنسيات، والثوار.

الميلاد وذكريات الطفولة :

ولدت «إيزابيل الليندي ليونا» Isabel Allende Liona في الثاني من شهر أغسطس عام 1942م بتشيلي .

كان والدها «توماس الليندي» سفيرًا لدولة تشيلي، انفصل عن والدتها فجأة عام 1945م عندما كانت «إيزابيل» في الثالثة من عُمْرها، وبقي عمها راعيًا لأسرة أخيه، ولم تر «إيزابيل» والدها مَرة أُخرى إلاَّ عندما كبرت وعندما علمت بوفاته متأثرًا بأزمة قلبية.

تعود الأم بأطفالها الثلاثة «إيزابيل وأخويها : «بانشو»، و «خوان» إلي منزل أبيها في سانتياجو، ممَّا اضطر الأم أن تعمل في وظيفة متواضعة في أحد المصارف، وخلال عملها كانت امرأة تُدعي «مارغرا» ترعى الأطفال، فكانت تلك الفترة من أصعب فترات حياتها.

الميل المشاكس إلي القراءات السرية :

خففت من مأساة رحيل الأب، وانشغال الأم بعملها أنَّه كان يعيش معها في بيت الأسرة خالان عازبان لم يتزوجا، تكفلا بملء طفولة «إيزابيل» بالمفاجآت، وكان خالها المفضل هو «بابلو» والذي كان شديد النهم بالقراءة وهو الذي أقنعها أن شخصيات الكتب تُغادر الصفحات في الظلام، وتجوب أنحاء البيت، وهو الذي أهدى إليها مصباحًا يدوياً، كي تقرأ تحت الغطاء، ومنذ ذلك الحين تملكها الميل المشاكس إلي القراءات السرية .

قصص ألف ليلة وليلة وتشكيل وعي الطفلة «إيزابيل» :

تزوجت الأم من دبلوماسي هو العم «رامون» الذي اصطحب الأسرة معه في تجولاته في البلدان التي عمل بها دبلوماسيًا ممثلاً لحكومة تشيلي، حيث انتقلت الأسرة إلي بوليفيا، ومن ثم لبنان حيث ارتادت «إيزابيل» المدرسة البريطانية الخاصة في بيروت، ثم عادت إلي تشيلي عام 1958م لتكمل تعليمها الثانوي .

وسم التنقل طفولة «إيزابيل» بطابع مميَّز، جعلها تحتفظ بذكريات مميزة عن رحلات خيالية ومدن سحرية . كما أن زوج أمها امتاز بالتعاطف والمحبة تجاهها . وتذكر «إيزابيل» قصص ألف ليلة وليلة التي قرأتها في طفولتها، والتي كان زوج أمها يحتفظ بها في خزانة سحرية قديمة، جعلت خيالها يتسع ليحتفظ بالتفاصيل الصغيرة، ويضفي عليها طابعاً سحرياً . كما أن ميراث الأسرة السياسي لم يغب عنها أيضاً، ولم تغب تأثيراته في طفولتها التي تقول عنها : «إنَّها كانت طفولة وادعة جدًّا» .

زواج «إيزابيل الليندي» :

عندما عادت «إيزابيل الليندي» إلي تشيلي كانت شابة يسارية مثقفة، فالتقت زوجها

الأول «ميجيل فرياس» الذي تزوجته في عام 1962م، والتي أنجبت منه ابنتها «باولا» في 22 من أكتوبر عام 1963م، وابنها «نيكولاس» في عام 1966م. ورغم طلاقهما فإن «إيزابيل» تحتفظ له بذكري جميلة تمثلت في إيماءتها إليه بتسمية إحدى شخصيات رواياتها «بيت الأرواح» علي اسمه .

أمَّا زواجها الثاني .. فخلال زيارة قامت بها «إيزابيل» إلي كاليفورنيا في عام 1988م قابلت زوجها المحامي الأمريكي الذي يُدعي «ويليام جوردون» وسرعان ما تزوجته، وأقامت في سان رافاييل منذ ذلك الحين، ثم حصلت علي الجنسية الأمريكية في عام 2003 م .

الرحيل الدامي لابنتها الوحيدة «باولا» :

بعد أن أنجبت «إيزابيل الليندي» من زوجها الأول «ميجيل فرياس»، «باولا» و «نيكولاس»، اكتشفوا بالصدفة إثر سقوط ابنة أخت «ميجيل» مصابة بمرض أوداء الفرفيرين القاتل، وبعد أن أجروا الفحوص اللازمة في إحدى المستشفيات الأمريكية تبيَّن أن ثلاثتهم (الأب والابنة والابن) مصابون بالداء ذاته . وهذا المرض هو اضطراب استقلابي ولادي في الدم، مصحوب باضطرابات نفسية .

كانت الصدمة الأعظم في حياة «إيزابيل» حتي الآن هو وفاة ابنتها «باولا» عام 1991 م عن عُمْر يناهز ثمانية وعشرين عامًا . تقول «إيزابيل الليندي» : «أخذوا ابنتي شابة حية بحالة جيدة، وأعادوها جثة هامدة» .

كانت تأثيرات وفاة «باولا» علي أمها شديدة وقاسية، لكن «إيزابيل» كانت طوال حياتها امرأة قوية، فحوَّلت ألمها إلي كتاب جميل استعادت فيه طفولتها وذكرياتها، أسمته «باولا» علي اسم ابنتها، وخصصت ربع دخله لدعم مراكز دعم السرطان .

الانقلاب الدموي يطيح بعمها الرئيسي سلفادور الليندي:

في الحادي عشر من سبتمبر عام 1973م حصل انقلاب فاشي ودموي قاده «بيونشيه» ضد حكم الجمهوريين في تشيلي بقيادة «سلفادور الليندي» عم «إيزابيل الليندي» الذي قتل خلال الاستيلاء علي «لامونيدا» (القصر الرئاسي التشيلي).

لقد أثّر هذا الحدث المفجع علي «إيزابيل» كما أثرَّ علي الشعب التشيلي . وبسبب تلك القرابة بالرئيس، فإنَّها صُنفت تلقائيًا كعدوة للنظام الجديد، حتي أنَّها في عام 1975م نُفيت إلي فنزويلا، وهناك عملت في جريدة كاركاس إل ناسيونال، كما أنَّها عملت مُعلِّمة في مدرسةٍ ثانوية.

غير أن تأثير الانقلاب الدموي الأعمق وتوابعه ستظهر فيما بعد وبالتفصيل في روايتها الأولي «بيت الأرواح» . بعد ذلك لم تعد تشيلي بالنسبة لها كما كانت، وكلما زارتها وجدتها أصغر، وأقل رحابة بكثيرة !!

«إيزابيل الليندي» وحياة عملية ثرية ومفعمة بالتجارب والخبرات:

في الفترة من عام 1959 م وحتي عام 1964م عملت «إيزابيل الليندي» في منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة في سانتياجو، وفيما بعد في بروكسل، وأماكن أُخرى كثيرة في أوروبا .

وعند زواجها عملت في محطة تلفزيونية حيث أعدت الكثير من البرامج التلفزيونية والوثائقية التي زودتها بذخيرةٍ من المعرفة العميقة والخبرات الثرية التي ظهرت في كتاباتها لاحقاً، كما عملت في مطبعة صحفية وعملت أيضًا كمُعلِّمة في إحدي المدارس الثانوية. ولو لم تكن أُجبرت «إيزابيل» علي مُغادرة تشيلي فإنَّها غير واثقة من أنَّها كانت ستصبح روائية مشهورة . إنَّها تعتقد أنَّه بإمكان أيّ إنسان أن يكتب، لكن القلائل يملكون موهبة القص، وفي هذا الصدد تقول : «تحتاج لأن يكون عندك أُذن للحكايات، إنَّه شيء أشبه بالموسيقي.. كل إنسان يستطيع أن يُغني أنشودة عيد الميلاد، لكن الموسيقيين الحقيقيين قلائل».

ومنذ عام 1964 وحتي عام 1974 عملت «إيزابيل في مجلة «باولا» وهي مجلة نسائية، ومجلة أطفال تسمي «مامباتو» . وفي عام 1973 م عرضت مسرحيتها الوحيدة «إل إمباجادور» El Embajador . كما عملت في جرية إل ناسيونال .

إيزابيل الليندي : قناصة الحكايات :

هي واحدة من أكثر روَّاد تيار «الواقعية السحرية في أمريكا اللاتينية عُمقًا وشهرةً،

تقول عن نفسها : «بدأت الكتابة في سن تتجه فيها النساء التشيليات عادةً إلي حياكة الجوارب لأحفادهن» . ومن المعروف أنَّها بدأت الكتابة في عام 1982 م حيث كان عُمْرها آنذاك أربعين عامًا.

و«إيزابيل الليندي» حاصلة علي العديد من الجوائز الأدبية المهمة، وتعتبر من الأسماء المُرشحة دائماً للحصول علي جائزة نوبل في الأدب.

لقد صارت الحكاية عند «إيزابيل» حياة أخري تحياها عوضاً عمَّا فقدته في الواقع المُعاش وفي سبيل إبقاء رابطة مع الذين غابوا وطواهم الموت، لكن النسيان لا يطويهم لأنَّهم أصبحوا حكايات تتحدث بالدمع والكلمات .

«إيزابيل الليندي» مستمعة جيدة وقناصة حكايات، هي تقول : «إن كل حكاية بالدنيا هي بالضرورة نص مثير شريطة أن نقولها وأن نكتبها بأسلوب مناسب» .

و«إيزابيل الليندي» تقرأ الصحف كثيرًا وهي تكتشف دائماً أن الأخبار الصغيرة المخبوءة داخل الصفحات تغريها بكتابة رواية كاملة، هي عين القناصة حينما تلمح فريستها وتميزها من بين الجميع .

مصادر الإبداع القصصي عند «إيزابيل الليندي» :

نتيجة لترحال الأسرة الطويل، اختزنت «إيزابيل الليندي» في ذاكرتها الكثير من الحكايات والتفاصيل الدقيقة، لتتحوّل هذه الخبرات الصغيرة إلي تفاصيل حميمة رائعة تملأ رواياتها، وتكسبها زخماً مميَّزاً .

وفي أحاديثها تُشير «إيزابيل» إلي الأحلام والمصير والعاطفة والحب، حيث تستدعي رواياتها وكتبها عالم السحر والقدر، فمثلا الصورة التي تظهر علي غلاف رواية «ابنة الحظ» هي فتاة رأتها «إيزابيل» داخل مقهي عندما كانت تؤلِّف رواياتها، كان وجهها شبيها بملامح بطلة الرواية «أليزا» من هنا طلبت «إيزابيل» من الفتاة نشر صورتها علي غلاف الرواية .

لقد اكتسبت «إيزابيل» حب الحكاية في طفولتها من أمها، تقول «إيزابيل»: «كانت أمي تتشبث بأبنائها بقوةٍ، محاولة التعويض عن ساعات تغيبها وعن شح الحياة بالتفافات

شعرية . كنا نحن الثلاثة ننام معها في الغرفة نفسها، وفي الليل، وهو الوقت الوحيد الذي نقضيه معًا، كانت تروي لنا طرائف عن أجدادنا وحكايات خيالية مطعمة بفكاهة سوداء، تحدثنا عن عالم وهمي نعيش فيه جميعًا سعداء لا تسوده الشرور الإنسانية، ولا قوانين الطبيعة القاسية» .

كما اكتسبت الشيء الكثير من جدتها، وجدها، هذا الذي أصبح مَنجمًا خصباً لها، تستمد منه ما ترغب كلَّما أعيتها السُّبُل، تُعبِّر «إيزابيل» عن هذا الجانب بقولها : «لقد وفرت لي زياراتي اليومية لجدي مادة كافية لكل الكتب التي أَلَّفتها، وربما لتلك التي سأكتبها فيما بعد، فقد كان راويًا بارعاً، يتمتع بمرح خادع، يمكنه أن يروي أشد القصص رُعباً وفظاعة وهو يُطلق القهقهات!! وقد نقل إليَّ دونَ تحفظ كل النوادر والحكايات التي راكمها علي امتداد سنوات حياته الطويلة، وأبرز أحداث القرن المنصرم التاريخية، وشذوذ أسرتنا، والمعارف غير المحدودة التي اكتسبها من مطالعاته» .

عالم «إيزابيل الليندي» الروائى :

رواية : بيت الأرواح :

رواية تحكي بطريقة مؤثرة وساخرة في الوقت نفسه عن أسرة غريبة الأطوار تمتد إلي أجيال أربعة، تعيش في أمريكا اللاتينية في منزل مسكون بالأرواح أو الأشباح .

هذه الرواية هي الأولي للروائية «إيزابيل الليندي» وقد نشرت باللغة الإسبانية لأول مرَّة في عام 1982م، وسرعان ما حققت انتشارًا واسعًا وأرقام توزيع قياسية في إسبانيا وأمريكا اللاتينية (حيث اللغة الإسبانية هي اللغة الرسمية لعشرين دولة) .

أمام هذا الانتشار السريع لم تستطع السلطة العسكرية في تشيلي أن تحول دون تسلل الرواية إلي داخل البلاد فسمحت الرقابة – علي مضض – بتمريرها، بل وسمحت بنشرها رغم ما بها من تلميحات وتعاطف مع عمها الرئيس السابق «سلفادور الليندي».

ولكن كيف أبدعت «إيزابيل» هذه الرواية ؟ لقد بدأ الأمر، حين عرفت أن جدها، الذي كانت تربطها به علاقة حميمة للغاية، وإن تقلصت هذه العلاقة في سنوات الاغتراب في فنزويلا إلي رسائل لجوجة منها ومتباعدة منه، والذي كان عُمْره يقترب

من المائة، مريض جداً، أى أنّه يحتضر . لذلك قررت أن تكتب له، وها هي تُعبِّر عن مشاعرها بقولها : «لآخر مرَّة، كي أقول له إنَّه يمكنه الذهاب بسلام لأني لن أنساه أبداً وإنني سأنقل ذكراه إلي أبنائى وأحفادي . وبعد قليل من ذلك توفي جدي العجوز، ولكن الحكاية كانت قد استحوذت عليَّ، ولم أعد أستطيع التوقف عن الكتابة، كانت هناك أصوات أخري تتحدث من خلالي، ورحت أكتب بعناء وبإحساس من يفك خيوط كبة من الصوف، وبالعجلة نفسها التي أكتب بها الآن . وفي نهاية تلك السنة اجتمعت لديَّ خمسمائة صفحة في كيس من قماش سميك، وأدركت أن ما كتبته لم يعد مجرَّد رسائل، عندئذ أعلنت أمام الأسرة بخجل أنني ألَّفت كتاباً».

ورغم أن «إيزابيل الليندي» لم تحدِّد اسم البلد الذي تدور فيه أحداث الرواية. إلاَّ أن القارئ لا يحتاج إلي جهد كبير ليعرف أن الشخصية التي أطلقت عليها الكاتبة اسم «المرشح» ثم بعد ذلك «الرئيس» ليست سوي «سلفادور الليندي»، نفسه، وأن الشاعر الذي تُردِّد جميع الشخصيات أشعاره ليس سوي رفيق نضاله «بابلو نيرودا» شاعر تشيلي الكبير والحاصل علي جائزة نوبل في الأدب عام 1971م .

ورواية «بيت الأرواح» تحكي بطريقةٍ مؤثرة وساخرة في الوقت نفسه عن أُسرة غريبة تمتد إلي أجيال أربعة تعيش في أمريكا اللاتينية في منزل مليء بالأرواح أو الأشباح وبالأحداث المجنونة التي تصنعها شخصيات هي مزيج مُعقَّد وغريب من الواقع والخيال، وفيها ترسم «إيزابيل» صورة كونية للطبيعة الإنسانية، فتصبح الشخصيات مُجرَّد استحضار لذواتنا جميعًا وهذا ما يعكسه نجاح الرواية واستحسانها من قِبل ثقافات مختلفة لأن القارى كما تقول الكاتبة «يجد صدي لعواطفه في شخصياتي .. فجميع البشر يحبون نفس الأشياء ويكرهون نفس الأشياء وبنفس الطريقة والأسباب متشابهة» .

وكل شخصياتها مستوحاة من تجربتها في الحياة وخاصة أثناء عملها كصحفية: «أنا لا أخترع كثيراً .. ولكني أحاول أن أتغلغل في أعماق الناس» . كما تقول عن نفسها إنَّها حينما تكتب فإنما : «أكتب عن الرُّعب المُعاش في أمريكا اللاتينية، والعنف الذي يجني علي كل الناس ولا يجد مَنْ يردعه أو يعاقبه في أى مكان أو في أي وقت من تاريخ الإنسانية» .

و«إيزابيل الليندي» التي كان نجاح روايتها الأولى مفاجأة لها ولأسرتها تقول : «ظللت أعاني من شلل المنفي عدة سنوات.. لقد كانت جذوري هناك في تشيلي وكانت الحياة شبه متوقفة وأنا أنتظر العودة إلى بلادي.. وعندما علمت أن جدي كان قد سئم الحياة ورفض الطعام والشراب.. وقرَّر أن يموت.. بذهاب جدي ذهبت البقية الباقية من تشيلي فقد كان شخصية رئيسة في حياتي حيث نشأت في منزله بعد انفصال والدي في صغري.. كنت أُحبه وكان يحبني ورغم اختلافاتنا كان كلانا يغفر أخطاء الآخر».

وجدها في الرواية هو شخصية «استيبان تروبا» كبير الأسرة . ولا شيء يضايق الكاتبة أكثر من اتهامها من قِبل بعض النُّقَّاد بأنَّها قد : «فصَّلت رواية علي نموذج تحفة «جابرييل جارسيا ماركيز» (مئة عام من العزلة) والتي كانت هي نفسها تحمل الكثير من ملامح الرواية الجديدة في أمريكا اللاتينية التي تجلَّت بواكيرها في الخمسينيات من القرن المنصرم في أعمال «فونتيس» المكسيكي و «كورتاسار» الأرجنتيني» .

ويبدو أن لدى النُّقَّاد ما يبرر هذا الاتهام فـ «روزا» الجميلة عند «إيزابيل» هي «ريميديوس» الجميلة عند «ماركيز»، كما أن «نيكولاس تروبا» الذي ينتقل من عمل لآخر في روايتها ليس سوي طبعة جديدة من المخترع المجنون «جوس أركاديو بيوديا» الذي حاول عند «ماركيز» أن يصنع حجر الفلاسفة .

وإذا كان «ماركيز» قد أبدع مزيجا شعرياً رائعاً من الفانتازيا والواقع حيث يختلط الخيال بالواقع وتتغلغل الأساطير والخرافات في نسيج الحياة اليومية وتحدث الغرائب والمعجزات فلا تثير دهشة أحد .. ربما لأن واقع الحياة في هذا الجزء من العالم قد تجاوز أكثر الغرائب إمعانًا في الغرابة وربما لأن عبثية الحياة قد أفقدت إنسان هذا العالم حسه بالدهشة وبراءته .. وربما لأن الكاتب يريد أن يتحدي بعالمه الخلاق الصورة الزائفة التي تطرحها السلطات الرسمية للواقع وللتاريخ على السواء . فإننا نجد أن «إيزابيل» فعلت الشيء نفسه وسارت علي نفس طريق كُتَّاب أمريكا اللاتينية الذين أفرزهم الإطار الاجتماعي والسياسي والثقافي الفريد الذي يعيشون فيه يمزجون الواقع بالأسطورة، والسحر، والخرافة ويخلقون عالماً فنيًا يمجدون فيه الطبيعة ويتعاملون مع الإنسان علي أنَّه جزء منها .. ففي «بيت الأرواح» كثيرًا ما نواجه صورًا كهذه : «كان شوبان

يعزف علي البيانو بأيدٍ لا يراها أحد .. وإلي جواره يقف كلب ضخم في حجم الصحان له مخالب تمساح .. يأكل المربي .. كانت الكراسي ترقص والملاحات تقفز فوق مائدة الطعام».

كذلك تقابلنا شخصيات غريبة مثل «روزا» الجميلة ذات الشعر الأخضر المُعلَّق علي رأسها مثل عباءة نباتية .. كما نُقابل «نيكولاس تروبا» الذي ينتقل من عمل لآخر «ليقوم بتعليم رقص الفلامنكو ويبني منطاداً ويُدير محلاً للسندويتشات ويسافر في أرجاء الهند مرتدياً حفاض طفل» .

كما يأتي عزفها علي شخصية «استيبان» كبير التروبا وزوجته «كلارا» تصويرًا مرحًا وساخرًا للتنافر بين الشخصيتين . إذ بينما «استيبان» شخص بسيط ومعقول ومحكوم بالطبيعة أن يُسبِّب لزوجته مضايقات كثيرة نجدها رُغم بصيرتها التي تستطيع النفاذ إلي ما وراء الأشياء تسبِّب هي له إزعاجاً شديداً بحكم اتصالها الهامس والمستمر بالأرواح .. وحين يحاول استرضاءها .. «فلا يُسبِّب لها سوي المزيد من الكوارث» .. بعد زفافهما لا يجد هدية لزواجهما يقدمها لها سوي جلد «باراباس» كلبها الميت، الذي كان عزيزاً عليها، فيحوله إلي سجادة أمام سريرها «وحدقت عيناه الزجاجيتان بنظرةٍ يائسةٍ .. نظرة حيوان مُحنط» .

ويمتد عدم إحساس «استيبان» بزوجته وتبلد شعوره نحوها إلي ما بعد موتها.. فيبدأ هذا الأرمل في ارتداء تميمة من جلدٍ تحت قميصه «بداخلها الأسنان الاصطناعية لزوجته وكان يعتبرها تعويذة لجلب الحظ الحسن وتكفير الذنوب». وفي واقع الأمر كان هو الذي حطم أسنانها في شجار سابق بينهما منذ سنوات .

وسلوك الجيل الثاني من أسرة التروبا لا يختلف كثيراً .. «جيم» توأم يخلع قميصه ليعطيه لشخصٍ معوز وفي مناسبة أُخري يخلع بنطلونه في ساحة عامة !! أمَّا أخته «بلانكا» فهي الشخصية الوحيدة العادية في الأسرة لأنَّها لا تُبدي أى ميل نحو روحانيات أمِّها ولا أى اهتمام بنوبات الهياج العنيف التي تجتاح والدها، وهي الوحيدة من نسل الأسرة التي تخرج عن طبقتها .

وتستمر رواية الأحداث الغريبة بفضل روح السخرية التي تتمتع بها الكاتبة يساعدها

على ذلك موهبة فذة في تقديم صور موحية تُغلفها بلمساتٍ سيريالية حتي نصل معها إلى السبعينيات من القرن المنصرم .. وعند هذه النقطة تبدأ المواجهة الساخنة، وبالطبع تنجرف أسرة تروبا إلي الصراعات التي ابتليت بها تشيلي كلّها ..

رواي : باولا :

تتناول قصة ابنتها باولا، التي أُصيبت بمرضٍ خطير، وبخطأ طبي راحت في غيبوبة حتي فقدت الحياة وهي في سن الثامنة والعشرين ربيعاً .. إنها الرواية التي ألهبت مشاعر الجميع حزناً وألماً .

في شهر ديسمبر 1991م سافرت «إيزابيل الليندي» من كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية حيث تقيم، إلي مدريد، وذلك للترويج لروايتهاالجديدة «الخطة اللانهائية». وكانت ابنتها «باولا» تقيم مع زوجها «أرنستو» هناك، واندهشت «إيزابيل»، لأن ابنتها لم تستقبلها في المطار كعادتها وبعد يومين، كانت «إيزابيل» وسط جمع حاشد توضح الظروف التي دفعتها إلي كتابة روايتها، وفجأة أخبرتها وكيلة أعمالها بنقل ابنتها إلي المستشفي، فكانت تهاتفها بين كل مقابلة صحفية وأُخرى، وحين تفاقمت حالتها ألغت ما تبقي من ارتباطات، وأسرعت إليها في المستشفي، وعن لقاء الأم بالابنة، تقول «إيزابيل» : «وجدتكِ متكئة علي السرير شاحبة، بملامح ضياع، وكانت نظرة واحدة كافية لإدراك مدى خطورة حالتكِ ...

لماذا تبكين ؟

سألتني بصوتٍ أجهله .

– لأني خائفة إنني أُحبَّك يا باولا .

وأنا أيضاً أُحبَّك يا ماما .

وكان هذا آخر ما نطقتِ به يا ابنتي، لأنَّها دخلت بعده إلي غيبوبة دائمة» .

رواية «باولا» نشرتها «إيزابيل الليندي» عام 1994م، وهي تتناول قصة ابنتها الحبيبة «باولا» التي وقعت في الحبِّ فترة قصيرة، لكنها أُصيبت بمرضٍ خطير وغرقت

في غيبوبة، وهكذا توقفت «إيزابيل» عن ممارسة حياتها الطبيعية لترعي ابنتها التي كانت ترقد فاقدة الوعي، وحوَّلت غرفة معيشتها إلي جناح مرضي خاص بابنتها .

حتي اليوم ما زالت «إيزابيل» تتسلم رسائل الإعجاب بالرواية من قُرَّائها . وغالباً ما تأتي الرسائل من نساء شابات أدركن فجأة أهمية جنسهن البشري، أو أنَّهن يتشوقن لعلاقةٍ من نوع العلاقة التي عاشتها «باولا» مع زوجها المخلص «أرنستو» ولم يكن قد مضى علي اقتران الزوجين سوى عام عندما مرضت «باولا» بمرضها .

عندما فوجئت «إيزابيل» بسقوط ابنتها في غيبوبة مرضها المميت، لجأت إلي عالم الكتابة، فهو الملاذ والملجأ، والجديد في الأمر أنَّها كتبت أثناء متابعتها غيبوبة ابنتها، وهي شاهدة علي تطور حالتها، رواية «باولا» . وإن كانت مبادرة الكتابة لم تظهر مباشرة فيها، بل جاءت من مساعدتها أو وكيلتها التي : «وضعت أوراق صفراء مسطرة علي ركبتيَّ وقالت : اكتبي وفرجي عن نفسكِ، فإذا لم تكتبي فستموتين غمًّا يا مسكينتي» . وربما اقتنعت «إيزابيل» لأن العرض وافق هوي في نفسها، ولأنَّه تماثل مع ما سبق أن فعلته أمُّها معها، حيث قدمت إليها دفترا أثناء إحدي أزماتها النفسية لتسجيل أحداث الحياة، حيث قالت لها : «خذي، فرجي عن نفسكِ بالكتابة».

وتقول «إنزابيل» : «كان هذا الكتاب مكتوباً بالدموع، ولكنها كانت دموعاً علاجية، وبعد أن انتهيت منه شعرت بأن ابنتي كانت حيَّة في قلبي».

من ناحية أُخرى تعتبر الكتابة محاولة من الكاتبة للتغلُّب علي رُعبها من حاضر رهيب لا قدرة لبشر علي مواجهته، فليس للكاتب - في نهاية المطاف - من ملاذ إلاَّ معمل فنه يلوذ به كلَّما أعيته مشكلة أو واجه خطراً تقول «إيزابيل» : «إنني أتقلَّب في هذه الصفحات في محاولةٍ لا عقلانية للتغلُّب علي رُعبي» .

كانت تلك محفزات الكتابة لدي «إيزابيل الليندي» عندما كتبت رواية «باولا»، دعمتها بعددٍ آخر من «مبررات عقلية»، فالفنان أيضًا يحتاج إلي اقتناع كامل بما يفعل، حتي ينفتح أمامه سبيل الإبداع فإذا كانت الغيبوبة - بالطبع نقصد غيبوبة ابنتها «باولا»- تُعتبر غيابًا كاملاً عن الواقع، لا تسمح للمريض بالتواصل مع الآخرين، لذا

قد تبدو الكتابة محاولة جادة (للاتصال) مع الابنة، وهو ما عبَّرت عنه الكاتبة بقولها : «إنني أُناديكِ ولكنكِ لا تسمعيني ولهذا أكتب إليك».

أمَّا عن النضج الفني لرواية «باولا» فإن الناقد «حسين علي» يري أن الرواية لم تكن ناضجة فنياً ؛ لأنَّها لم تمر بمراحل الإعداد والتحضير والاحتضان والحمل والولادة، بمعنى أن «إيزابيل» لم تتح الزمن اللازم لتجربتها، لتأخذ مسارها الطبيعي، بل كتبتها خلال فترة المعاناة والعذاب أثناء دخول ابنتها في غيبوبة مرض مميت . والتي بدت فيها الكتابة ملاذاً أو ملجأ للتغلُّب علي آلام محنتها، أو هي محاولة تتلمس فيها الطريق المظلم، الذي اندفعت فيه الأمور بخطي متسارعة .

ورغم هذا تدفقت علي الورق بتلقائية، وبساطة، تجربة ساخنة مفعمة بالمرارة والحزن والألم، كانت كل كلمة فيها أشبه بجمرةٍ حارقةٍ، مركز ثقلها الظاهري حالة ابنتها، التي دخلت الغيبوبة بكل ما يطرأ عليها من تحولات، وما يحيط بها من أحداث، وامتزج هذا التيار الظاهر، وتداخل مع حياة «إيزابيل» الخاصة والعامة، معجوناً وملوناً بتجربتها الفنية، حتي بدت الرواية أقرب ما تكون إلي السيرة الذاتية أو أدب الاعتراف . وجاد خلل البناء من «سكون» مركز ثقل الرواية ومحور حركتها، نتيجة استقرار حالة الابنة في غيبوبتها الأزلية .

رواية : ابنة الحظ :

رواية تبحث عن الظروف التي أحاطت بهؤلاء الذين حاولوا البحث عن الذهب في كاليفورنيا منذ عام 1832م .

صدرت هذه الرواية في عام 1999م وقد قامت «إيزابيل الليندي» في تلك الفترة بجولةٍ عالمية لترويج هذه الرواية الصادرة عن دار «هارير كولينز» . وتعتبر هذه الرواية الأهم فنيًا بالنسبة للكاتبة فهي التي رفعتها إلي مستوي الروائيين العالميين . وقد لاقت الرواية ردود أفعال متناقضة، ففي حين رأت صحيفة «نيويورك تايمز» أنَّها من الإصدارات الأكثر تميُّزاً وتعبيرًا عن ظروف العيش في القرن السابع عشر، هاجمتها مؤسسات أنصار حقوق المرأة والجمعيات مُتعدِّدة الأعراق .

تبدأ أحداث رواية «ابنة الحظ» في تشيلي عام 1832 م وتنتهي أثناء الاندفاع نحو الذهب في كاليفورنيا . تقول «إيزابيل» : «إنَّها حكاية أُناس جاءوا للبحث عن الذهب وعثروا علي الحرية» . كتبت «إيزابيل» الرواية بلغتها الأصلية الإسبانية، ومن ثمَّ تُرجمت إلي لغات أخري كثيرة . والجدير بالذكر أن للكاتبة معجبين مخلصين ليس في أمريكا فقط وإنما في بلاد أُخري كثيرة مثل : فرنسا وإيطاليا وألمانيا والدانمارك والسويد وجميع أرجاء أمريكا اللاتينية .

في هذه الرواية أرادت الكاتبة أن تدرس ظروف الناس وحياتهم أثناء فترة البحث عن الذهب، لكن من وجهة نظر الملونين بطلة الرواية فتاة تشيلية تُدعي «أليزا» تقع الفتاة في حبِّ شاب يُغرر بها فتهرب من تشيلي وهي حامل وغير متزوجة وذليلة . تهرب إلي كاليفورنيا بمساعدة «تاوشيان» المداوي الصيني الذي يعمل طباخاً علي ظهر سفينة. تتخفي «أليزا» في هيئة رجل وتعزف علي البيانو في حفلات تُقام علي ظهر السفينة . إلاَّ أن الأجزاء الأكثر صراحة في الرواية تحكي تجربة مؤلمة لمراهقات جلبن من الصين كي يعملن داعرات في شانيا تاون . كانت ظروفهن غير إنسانية فقد كن يوثقن في أغلب الأوقات ويعطين المخدرات ويُمنعن من تناول الطعام .

رواية : صور عتيقة :

رواية الذكريات العائلية والسياسية والحياتية .

صدرت هذه الرواية في عام 2000م، و«إيزابيل الليندي» في هذه الرواية تدعو قُرَّاءها لدخول عقلها وقلبها وعائلتها وماضيها . وهي تقول كل شيء، فمازالت ترسل إلي أمها الرسائل كل يوم، كما ذكرت في مقابلةٍ مع إحدي الإذاعات الأمريكية . وتواصل هذا التقليد منذ سنوات عديدة . وقبل وفاة ابنتها «باولا» عام 1992 م، كانت «إيزابيل» تتبادل الرسائل بشكلٍ يومي مع كلا المرأتين : أمّها وابنتها، تلك الرسائل كانت حجر الزاوية لمذكراتها في روايتها «باولا» . أمَّا مذكراتها بعد رحيل «باولا» فقد صاغتها علي شكل رسائل تُخاطب فيها ابنتها لتروي لها ما حدث في العائلة منذ يوم ذر رمادها في إحدى الغابات قرب منزل «إيزابيل» في كاليفورنيا .

كما تروي عن إدمان ابنة زوجها وموتها . وتروي كذلك عن حياتها هي شخصيًا ككاتبة ناجحة، كما تتحدَّث بصراحة تامة وفي أسلوب مُسلٍ ومثير للضحك عن غرورها وعن قِصر قامتها (لا يزيد طولها عن خمسة أقدام)، وعن رغبتها الجامحة في أن تكون جزءاً لا يتجزأ من حياة الأهل والأصدقاء . وتصف حالة ابنها «نيكولاس» وأولاده الثلاثة ومدي تعلُّقها بهم، تقول : «لا شيء يوازي متعة التسلل إلي منزلهم المجاور عند الفجر وإيقاظهم بالقبلات» .

وبصراحةٍ تتحدّث أيضاً «إيزابيل الليندي» عن مشكلات زواجها،إنَّها بمهارةٍ فائقة وقدرة علي خلط المزاح والنكتة مع الحزن والتصوف، تسرد الكاتبة تفاصيل حميمة عن خصوصيات العائلة، والخيانات الزوجية، والطلاق، الأفراح، والأحزان، النجاح، والفشل، إنَّها تعرض علي القارئ أفلاماً رائعة تُجسِّدها سطورها ووصفها لكل التفاصيل .

هذا، ويمكن اعتبار هذه الرواية تتمة لروايتها «باولا» : «أنت تحتاج إلي عائلة غير عادية لتصبح كاتباً» .

رواية : زورو «الثعلب» :

رواية تدور حول البطل الأسطوري المكسيكي زورو .

صدرت هذه الرواية في عام 2005 م، وهي تحكي عن البطل الأسطوري المكسيكي والعالمي في الوقت نفسه «زورو» أو بالعربية «الثعلب» الذي تابعته الجماهير في مجموعة كبيرة من الأفلام والمسلسلات التلفزيونية طوال سنوات.

وقد كتبت «إيزابيل الليندي» هذه الرواية في الوقت الذي كانت تنتظر فيه حدثاً سعيداً، وهو مولد طفلتين توأم لزوجة «أرنستو» (زوج ابنتها باولا) والتي ترعاها تمامًا كما لو كانت ابنتها وكأنها ترى فيها تلك البنوة التي فقدتها في ظرفٍ مأساوي .

تقول «إيزابيل» عندما سئلت عن ظروف تأليفها رواية «زورو»: شاهدت الأفلام وبعدها بدأت أقرأ عن اللحظات التاريخية التي من المفترض أن شخصية «زورو» ولدت فيها، وانتشار أفكار الثورة الفرنسية والحروب النابليونية، وحروب الاستقلال

في أمريكا . قرأت كل ما يتعلَّق بتلك الفترة، ولم يحدث شيء في كاليفورنيا، كان هناك هنود وأبقار وبعض الإرساليات المسيحية القليلة، وحينها قلت لنفسي : هذا الفتى ولد هنا، ويجب أن يخرج من هنا، وبدراسة تلك الفترة وجدت نفسي أسيرة لتلك الشخصية. بعدها بدأت أدرس شخصية «زورو» فاكتشفت إنني متعاطفة معها، لأنَّه بطل خفيف الظل فهو مزيج من «روبن هود» و«بيتربان» و«تشي جيفارا»، لكن حياته خالية من المآسي، إنَّها شخصية نقية الدم وذات قلب منطلق، يمتلك ذلك الشباب الدائم الذي كان يمتلكه «بيتربان» وميله للعدالة مثل «روبن هود» ونظرة اجتماعية مثل «جيفارا» ثم هناك الجانب الرومانتيكي : تخيَّل هذا البطل الذي يقفز إلي شرفتك في الليل وفي اليوم التالي لا تشعر تجاهه بالضغينة ولا حتي تتذكر مَنْ يكون، لأنّه مقنع .. كل هذا جعلني أشعر أنه أمر رائع... «زورو» لم يكن ناجحًا في الحب، ولذا فأنا لا أريد أن أصنع بطلاً ناجحاً في كل شيء، أُريد شخصية إنسانية، ما أن يضع القناع علي وجهه حتي تتغيَّر شخصيته، لكني عشقت الشخصية بشكل كامل، وبعدها اكتشفت أن «زورو» محبوب في العالم كلِّه، إن 64 ٪ من الشعب الصيني يعرف مَنْ هو «زورو» من الأجداد حتي الأحفاد .

رواية : آينيس توأم روحي :

رواية تحاول الكشف عن دور المرأة الجريئة «آينيس سواريز» رفيقة درب «بيدروفالديفيا» لتكريم النساء اللواتي شاركن في حملة اكتشاف القارة الأمريكية.

تأخذك «إيزابيل الليندي» في هذه الرواية إلي القرن السادس عشر، حتي يخيل إليك أنَّها عاشت هناك، وصفها الدقيق لكل التفاصيل الصغيرة، أساليب الحياة، تضاريس الأماكن والأحداث الدامية التي عاشتها أمريكا اللاتينية في تلك الحقبة الزمنية، يجعلك تنظر بإعجاب شديد، فهي إمَّا أنَّها واسعة الإطلاع علي خبايا التاريخ، أو أنَّها امرأة ذات خيال خصب، استطاعت أن تُسافر بخيالها إلي ذلك الزمن لترسمه، حروفها بواقعية قد تُدهشك .

في هذه الرواية تحاول الكاتبة إبراز دور المرأة في الفتوحات الجغرافية للعالم الجديد،

ذلك الدور الذي تم تجاهله لقرون . رُغم أن هذه الحضارات لم تكن لتنهض لولا وجود المرأة إلي جانب الرجل.

«آينيس سواريز» المولودة في بلاسينسيا أصلاً، امرأة بسيطة كانت تعمل خياطة في بلادها، دفعها حب الفضول والرَّغبة في المغامرة للتمرُّد علي العادات السيئة آنذاك، وسافرت بحجة البحث عن زوجها إلي المجهول .. إلي الأسطورة التي يتحدَّث عنها الجميع، أرض الذهب والكنوز، ألقت بها أقدارها في البيرو... ولم تكن تعلم أن هذه المدينة ستغير مصيرها .. وتجعل منها مؤسسة تشيلي، وحبيبة روح «بيدرو دي فالديفيا». ذلك القائد الشجاع الذي تقاطع مصيره معها في ليلةٍ حالمة، ومنذ النظرة الأولى أدرك كلاهما أن الآخر هو نصف روحه .. وهو حبه الحقيقي الذي لن يتكرر أبداً، ومنذ ذلك الوقت .. وحتي موتهما بقي حبهما صامداً في وجه كل الصعوبات التي واجهتهما، سافرت معه إلي آخر العالم، كي يؤسسا حلمهما سويًا .. اجتازا صحار قاحلة، جبالاً وعرة، مستنقعات رطبة، وغابات كثيفة، كان الحب يظللهما وهما يرتجفان عطشاً، ويحاربان بشرًا متوحشين، ويضعان اللبنات الأولي لبناء مدينتهما الحلم .. سنتياجو .

«آينيس» تروي الحقيقة كاملة، بكل جمالها وبشاعتها، فتلك البطولات الخارقة التي رددها التاريخ لقرون، لم تكن مُجرَّد أعمال بطولية سامية .. بل كانت ملوثة بدماء لزجة، جثث متعفنة، وأعمال وحشية لا حصر لها ..

كتاب المذكرات : حصيلة الأيام :

تتناول «إيزابيل الليندي» مذكراتها في إطار مجموعة حيوات لبشر يمتون لها بصلة قربي كأولادها وأولاد زوجها وآخرين تعرَّفت بهم في الولايات المتحدة الأمريكية، أو أثناء تجوالها في العالم وسرعان ما ضمتهم إلي عائلتها الكبيرة التي تُصر علي تسميتها بالقبيلة . وقد عملت جاهدة للحفاظ عليها في خضم مشكلات الحياة . وعلي الرغم من كل الصعاب، كانت تعمل بجهد ومن دون كلل أو ملل، كأنَّها عادة مستحكمة فيها، علي إعادة لم شمل هذه القبيلة والانتباه إلي أدق تفاصيلها والسعي إلي التوفيق بين المتناقضات.

توجه الكاتبة خطابها طيلة الوقت إلي ابنتها المتوفاة نتيجة خطأ طبي، تحكي عن حياة العائلة المفجوعة بها، وأين أصبح شقيقها وزوجته إضافة إلي أشخاص كُثر تعرفهم الفقيدة أو لا تعرفهم.

كذلك تتناول الفقر والمجاعات والقتل في إفريقيا والهند والبرازيل، ضمنت مذكراتها خبراتها في الحياة، ظهرت كأم حقيقية وكجدة وزوجة، كامرأة من لحم ودم، لم تتردد في ذِكر عيوبها.

وتتحدَّث عن زوجها وعن العقبات التي واجهته فترة طويلة وكيف أنهما استعانا بالعلاج النفسي والعبر وبحكمة كانت قد تعلمتها من جدها في تشيلي واقتنعا بأن «الحياة مليئة بالصعاب ولا مجال للراحة أو التراجع فيها وعلينا التجديف في نهرها واجتياز العوائق وتجاوزها» وفقاً لإحدى النظريات البوذية التي أكثرت من ذكرها في الكتاب.

ثمة الكثير من القصص التي تذكرها الكاتبة عن حياة المهاجرين من أمريكا اللاتينية ومن القارة الأسيوية في أمريكا، والصعوبات التي تواجههم والظلم والإجحاف الذي يلحق بهم لعدم قانونية أوضاعهم، ما يؤثِّر مباشرة في أُسرهم.

ومِمَّا يجدر ذكره أن للكاتبة أعمال روائية أُخري تتمثَّل في : «عن الحب والظلال» - رواية - عام 1984 م . «إيفالونا» - رواية - عام 1985م . «حكايات إيفالونا» - قصص قصيرة - عام 1989م . «الخطة اللانهائية» - رواية - عام 1991م .. «مدينة البهائم» - رواية للأطفال والبالغين - عام 2002م . «بلدي المتخيل» - رواية - عام 2003م. «مملكة التنين الذهبي» - رواية للأطفال والبالغين - عام 2003م. «غابة الأقزام» - رواية للأطفال والبالغين - عام 2003م .

وهناك روايات تحوَّلت إلي أفلام هي : «بيت الأرواح»، «إيفالونا»، «أفروديت». كما أن هناك روايات تحوَّلت إلي مسرحيات مثل : «بيت الأرواح»، «إيفالونا»، «باولا» .

كما ترجمت أغلب أعمالها إلي اللغة العربية نذكر منها روايات «آينيس توأم روحي»، صور عتيقة»، «ابنة الحظ»، «حصيلة الأيام» وقد ترجمها «صالح علماني» . وروايات : «مدينة البهائم»، «أفروديت» ترجمها «رفعت عطفة» ..